أسرار أسلوب القرآن الكريم

خازن
maduluthfi@gmail.com
الجامعة الإسلامية الحكومية تولونج أجونج

الملخص

القرآن هو كلام الله المعجز للخلق فى أسلوبه ونظمه وعلومه وأحكامه وفي تأثير هدايته وفي كشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وليس أحد من الإنس والجنّ أن يأتي بمثل القرآن منذ نز وله إلى اليوم حتى القيامة. وقد مارس أهل العربية فنونها في تنسيق الكلام منذ عصر الجاهلي، هم يجعلون الأسواق رغم أنها كانت للتجارة ميدانا فسيحا لتبادل الآراء وعرض الأفكار والتشاور فى مشكلة الأمور ومجال للمفاخرات والمنافرات ومعرضا واسعا لإلقاء روائع الشعر والخطب. وكانت فى تلك الأسواق منابر يقوم عليها الخطباء والشعراء لإلقاء خطبتهم وقصائدهم، مثل سوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذوالمجاز وغيرها. وكان النقاد والرواة يجتمعون ح ول الشعراء والخطباء، فينشد الشعراء

وينقد النقاد ويكتب الرواة ما يسمعوه. وكان رئيس النقاد النابغة الذبياني حكم الشعراء فيحكم بعضهم على الآخرين. وكانت هذه الأعمال الأدبي تحملهم على التجويد والتهذيب وتدعوهم إلى تخيير الألفاظ العذبة والأساليب الجميلة والمعاني الرائعة. فكان هذا الاجتماع الكبير وسيلة من وسائل التفاهم اللغوي والتقارب بين اللغات ا وللهجات العربية واختيار القبائل بعضها من بعض. فتأخذ كل قبيلة من لغة الأخرى ما خفّ على النّطق وظهر فصاحته من مختلف الألفاظ والأساليب. وكان القرشيّون أكبر القبائل ميلا إلى النقد اللغوي بتأثير اجتماعات الحجّ والأسواق والحروب، لأنهم خاصّة من بين قبائل العرب، فاقتبسوا من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأفصحها، وأخذوا يضيفون إلى لغتهم، فزادت ثروة اللغة العدنانيّة القرشيّة، وقلّدت القبائل الأخرى قريشا فى ذلك لمكانتها وأش رفها على هذه الأسواق. وحين ارتقى كون اللغة العربية فى ذلك الوقت جاء القرآن بأفصح الكلام، رغم الق رآن الذي عجز الع رب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم سواء كانت تتع لّق بالجملة الإسميّة والفعليّة وفى النفي والإثبات وفى الذكر والحذف وفى التعريف والتنكير وفى التقديم والتأخير وفى الحقيقة والمجاز وفى الإطناب والإيجاز وفى العموم والخصوص وفى الإطلاق والتقيد وغ يرها. والقرآن فى هذا قد بلغ الذروة التي يعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر.

الكلمة الرئيسية: أسرار، أسلوب القرآن، كشف الحجب.

المقدمة

وإذا نظرنا إلى جميع فنجد أن لكل رسول معجزة، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها، وكانت معجزات الأنبياء قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بآيات كونية تبهر الأبصار كمعجزة اليد والعصا لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعسى عليه السلام، وأما معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم هي معجزة عقلية، تحاج العقل البشري وتتحداه إلى الأبد. وهي معجزة القرآن بعل ومه ومعارفه وأخباره الماضية والمستقبلة. فقال رسول الله صلى عليه وسلم: ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا.[1]

فالقرآن نفسه كان حجة بلاغية، وقد أثر نفوس العرب سمو بيانه، حتى إن كثيرا منهم لم يؤمن إلابتأثير خصائصه الأسلوبية إذرآها فوق طاقته البيانية، فقد كانوا يتدارسون كل اية بكثير من الإهتمام والتدبر والإعجاب، حتى أن يعتقدوا أنه قد أحسنوا أن يكون يوم الحفل وي وم الجمع من القرآن، فإن ذلك يورث الكلام بهاء ورقة وسلس الموقع.[2] وقال عمر بن حطان يحكى عن تجاربه فى إلقاء خطبته: إنّ أوّل خطبة خطبتها عند ابن زياد، فأعجب بها الناس، وشهدها عمّي وأبي، ثم إنيّ مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شيء من القرآن.[3]

[1] رواه البخاري.

[2] –الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار الفكر، 1989 ، جزء 1، ص: 11

[3] ----------، ص: 11

كما كان من تأثير لغة القرآن أن أصبحت القبائل تفاخر بعضها بعضا فى ألفاظها من شبه بألفاظ القرآن، كما قال أهل المكّة لمحمد بن المناظر الشاعر من البصريين: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل المكة، فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى لألفاظ القرآن وأكثرها موافقة، فضعوا الق رآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمون القدر برمّ ة وتجمعونها على برّام، ونحن نقولها قدرا ونجمعها على قدور، هذه مناسبة بقوله تعالى: وجفان كالجوابي وقدور راسيات (النساء:13). وأنتم تسمّون البيت إذا كان فوق البيت عالية، وتجمعونه علالي، ونحن نسمّيه غرفة ونجمعها غرف، هذه مناسبة بق وله تعالى:... غرف من فوقها غرف مبنية (الزمر: 20)، وقال تعالى أيضا: وهم فى الغرفات آمنون (سبأ: 37)، وأنتم تسمّون الطلع الكافور والإغريض ونحن نسمّيه الطلع، قال تعالى: ونخل طلعها هضيم (الشعراء: 148)، وغيرها.

البحث

وفي القرآن كثير من الوجوه البلاغية، سواء كانت تتعلق بمباحث المعاني والبيان والبديع. قال أحمد الهاشمي صاحب جواهر البلاغة بأن من فوائد علم المعاني هي لمعرفة إعجاز القرآن من ناحية ما خصه الله تعالى به من جودة السبك وحسن الوصف وبراعة التراكيب ولطف الإيجاز وما اشتمل عليه من سهولة ال تراكيب وج زالة كلماته وعذوبة ألفاظه وغير ذلك من محاسنه التي أقعدت العرب عن مناهضته وحارت عقولهم أمام فصاحته وبلاغته.[4]

[4]أحمد الهاشيمي، جواهر البلاغة، مكتبة دار الإحياء الكتب العربية، إندونيسيا، – 1960 ، ص: 4

وقد وجدنا كثيرا عن جودة أنواع تراكيبه، مثلا في أسلوب الاستفهام، وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، هذا هو أصل معنى الاستفهام، ولكن وجدنا الآيات الاستفهامية قد تخرج عن معناها الأصلي إلى المعنى الأخرى لأغراض بلاغية، منها للأمر والنهي والتعجب والتوبيخ والتهويل والتمني والتنبيه والتقرير والتشويق والاستئناس واستبعاد والتعظيم والتحقير والتعجب والوعيد والتحسر والإهانة والتسوية والاستهزاء وغيرها.[5] والأية الاستفهامية فللأمر مثل قوله تعالى: ... وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون (الفرقان:20). أي اصبروا على الفتنة التي تصيبكم. وللنهي مثل قوله تعالى: أفحسبتم أنما خلقن اكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون (المؤمنون:115). أي لا تحسبوا بأن الله قد خلقكم عبسا بل هو خلقكم بالحق. وللتعجب مثل قوله تعالى: قالت يويلنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا (هود:72). الآية تتعلق بقصة سارة زوجة إبراهيم عليه السلام حين نالت البشارة بالولادة وكانت عجوزا وعقيما، وكذا كان إبراهيم زوجها شيخا كبيرا، فالولادة عندهما غير ممكن، وهي من العجائب. والاستفهام للتوبيخ مثل قوله تعالى: أأنتم أشد خلقا أم السماء (النازعات: 27)، الخطاب لمنكري البعث من الكفار توبيخا لهم بعد أن بين الله كمال سهولته بالنسبة إلى قدرته تعالى في خلق السماء العالية والواسعة بغير عماد. وللتهويل مثل قوله تعالى: ما الحاقة (الحاقة:2)، أي حقوق الساعة، لشدة هول القيامة وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات. ومد هولها وشدتها بحيث لا يكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه. فهي وراء ذلك وأعظم وأعظم. وللتمني مثل قوله تعالى: ... فهل إلى خروج من

[5] الهاشيمي، نفس المرجع، ص: - 93 - 9

سبيل (المؤمن:11)، الكفار لما رأوا النار أمامهم فتمن وا أن هناك طريقا للخروج منها ولكن هذا غير ممكن لأن الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم. وغير ذلك من الأغراض البلاغية عن جميع الآيات الآستفهامية في القرآن.

لقد كانت نشأة علم الكلام بسبب أصول الكلام، أكلام الله تعالى في القرآن قديم أم حديث، ثم اختلفت أراءهم وتضاربت في وجوه إعجازه. فذهب أبو إسحاق إبراهيم النظام ومن تابعه كالمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، ومعنى الصرفة في نظر النظام أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقا للعادة، ومعناها في نظر المرتضى: أن الله سلبهم العلوم التي يحت اج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن.[6] فردّ أبو بكر الباقلاني في قوله: ومما يبطل القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون المنع معجزا، فلا يتضمن الكلام فضلا على غيره في نفسه. فلا فائدة قوله تعالى: قل لئن اجتمعت الإنس الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (الإسراء:88)، هذه الآية تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة اجتماعهم.

وذكر الباقلاني أن دلائل وجوه إعجاز القرآن عشرة، وهي:ال وجه الأول: الإخبار عن الغي وب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، فمن ذلك ما وعد الله رسوله أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله عز وجلّ: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون (التوبة: 33)، كان أبو بكر الصديق إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله من

[6]مناع قطان: المصدر السابق: – 26

إظهار دينه، وكان عمر ابن الخطاب يفعل كذلك في أيامه، فكان سعد ابن أبي وقاص يذكر ذلك جيوشهم، وكانوا يلقون الظفر حتى فح في أيام عمر ابن الخطاب إلى بلخ وبلاد الهند وسجستان وجميع ما كان من الكسرى وغيرها.

الوجه الثاني: أنه كان من حال النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ يا، لا يكتب ولا أن يقرأ. وكذلك كان معروفا من حاله لا يعرف شيئا من كتب المتقدمين ومن أقاصيصهم وأنبائهم وأخبارهم. ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم إلى حين وأنباء الأنبياء مع قومهم حتي أنباء يوم القيامة والح وادث بعد ي وم القيامة من المحشر والميزان والصراط والجنة والنار وما أشبه ذلك. كل ذلك لا يمكن إلا من عند الله، قال تعالى: وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون (العنكبوت48).

الوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز منها ما يرجع إلى الجملة، له أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، هناك الكلام الموزون والمقفى والمسجع وغير ذلك. إذا نتأمل وجدنا أنه فصيحة جميعا والمعاني العميقة والحكم الكثيرة. وهذا النظم يخرج عن عادة كلام الإنس والجن في البلاغة، فهم يعجزون عن الإتيان. قال تعالى: قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا اقرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (الإسراء: 88). ومن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من ي برز في الهجو دون الم دح، وإنما وميدان شعرهم حوالي وصف الإبل والخيل والحرب والليل والرض والمرأة وغيرها قليلة.

فقال تعالى: الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله (الزمر: 23).

الوجه الرابع: أن المعاني التي تتضمن في وضع الشريعة والأحكام والاحتجاج والرد على الملحدين بالألفاظ البديعة والموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة. فالبراعة في القرآن أظهر وكذا الفصاحة، وكلاهما مما يتعذر علي البشر.

الوجه الخامس: أنه سهّل سبيله، وجعله قريبا إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، ولو كان وضع في وحشي مستكره لكان قائل فيه يعتذر ويعيب ويقرع، لكنه أوضح مناره وقرب منهاجه وسهل سبيله.[7]

وذهب بعضهم إلى أن القرآن معجز ببلاغته التي وصلت إلى مرتبة لم يعهد لها مثيل، وهذه لنظرة نظيرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعاني الحية في النسج المحكم والبيان الرائع.وبعضهم يقول: إن وجه إعجاز القرآن في الإخبار عن المغيبات المستقبلة التي لا يطلع عليها إلا بالوحي، أو الإخبار الماضية التي تقدمت بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أمي لا يتصل بأهل الكتاب، كقوله تعالى: في فتح ال روم؛ الم، غلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (الروم: 1-3).

وقال الخطابي: فخرج في هذا أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني من توحيد الله وتنزيهه في صفاته ودعاء إلى طاعته، وبيان لمنهاج عبادته في تحليل وتحريم

[7]الباقلاني، القاضي أبي بكر محمد بن الخطيب: إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية: بيروت، ص: - 28 -

وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإ رشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن عن مساويها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صو رة العقل أمر أليق به منه، مودعا من أخبار القرون الماضية من الزمان جامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وج وب ما أمر به ونهى عنه.[8]

وفي إعجازه العلمي أنه يحث المسلمين على التفكير من مظاهر الحياة في السموات وفي الأرض، لأن التفكير يفتح لهم أبواب المعرفة والتوحيد بالله وحده. كما قال تعالى: إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لأيت لأولى الألباب، الذين ي ذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار (آل عمران: 190 - 191). وكذا قوله تعالى: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت (الغاشية: 17 – 20). وكذلك كثير من الآيت الأخرى.

وفي القرآن هناك إشارات علمية، مثلا ما يتعلق بالأجنة في قوله تعالى: فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب (الطارق: 5 – 7). وفي وحدة الكون وحاجة الحياة إلى عنصر الماء قال تعالى: أولم يروا الذين كفروا أن السموات والأرض كنتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء:30). وفي القرآن هناك ما يتعلق علم الفلك، كما في قوله تعالى: والشمس تجري لمستقر لها ذلك

[8] مناع قطان، مباحث في علوم القرآن:

تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (يس: 38 – 40). وكذا قوله تعالى في دور الأرض: وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب (النمل: 88).

وقرر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية، النفس والدين والعرض والمال والعقل، ورتب عليها العقوبات المنصوصة التي تعرف في الفقه بالجنايات والحدود، كما ذكر الله تعالى: ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب (البقرة: 179). وقوله تعالى أيضا: الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة (النور: 4). وفي السريقة قال تعالى: السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما (المائدة: 38). وخلاصة القول أن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية افضل صورة وأرقى مثال، ولا يستطيع من الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن ولو كانوا يعينوا بعضهم لبعض.

لما قرئ على العرب القرآن رأوا أن حروفه فيه يخرج الصوت الموسيقي، وهذا الصوت لا يكون إلا من ترتيب الصوت الذي يثير ويترسل بعضه بعضا. وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت من الحروف بأنواع أصواتها ومخارجها، ومناسبة مدا أو غنة أو لينا أو شدة.

وروي أن ثلاثة من بلغاء قريش الذين لا يعدل بهم في البلاغة أحد، وهم الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس وأبو جهل بن هشام اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في بيته إلى أن أصبحوا، فلما انصرفوا جمعتهم الطريق فتلاوموا عن ذلك وقالوا: إنه إذا رآكم

سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا إلى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به، فلما كان في الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه، فلما أصبح وا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن قيس، فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟ فقال الأخنس: ماذا أقول؟ قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قالوا: نعم: فينا سدانة، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، يقولون فينا نبي ينزل عليه الوحي، والله، لا آمنت به أبدا، فما صدهم إلا العصبية، وقال الذين كفروا: لا تسمعون لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون.[9]

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لراينا ها أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز اشعور واستشارته من أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي وأعجمي حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرف ون لله آية فى الآفاق ولا في أنفسهم لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الحروف المختلفة هو بلاغة بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان. فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صا رف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان، وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن في الصوت الحسن ي زيد القرآن حسنا.[10]

والقرآن جميع حروفه مناسبة، لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره لكان ذلك خللا بينا أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة وفي حسّ السمع

[9] مصطفى صادق الرفعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، – 21

[10] نفس المرجع: – 21

واذوق اللسان وفي انسجام العبا رة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض.

ولكلمة في الحقيقة هي صوت النفس بدلا عن المعنى المراد. وصوت النفس هي أول الأصوات الثلاثة التي لا بد منها في تركيب النسق البليغ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها النفسية، فيجري في النفسي مجرى الإرادة. وأما الأصوات الثلاثة هي: الأول: صوت النفس، وهو الصوت الموسيقي الذي يك ون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة وعلى نضد متساو بحيث تك ون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس إن وقف من هذا المعنى قطع به. والثاني: صوت العقل، وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جمل الكلام، من الوجوه البيانية التي يداور لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحى إليها، الثالث: صوت الحسّ: وهو أبلغن شأنا، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، كأنها هي التي تريده، وكأنها هي التي تحاول أن يتصل اثرها بالكلام.[11]

ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف لأنفسها فيما هي له من امر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض ويساند بعضا، ولن تجدها إلا م ؤتلفة مع أصوات الحروف مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما ثقيلة في نفسها لسبب الثقل أيها كان. ورايت أصوات الأحرف والحركات بضروب من النغم

[11] نفيس المرجع: – 22

الموسيقي، من ذلك لفظة (النذر) جمع نذر، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا، ولكنه جاء في القرآن بأعذب التركيب، في قوله تعالى: (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر)، تلك الكلمة (النذر) تكون بعد القلقلة في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشتنا)، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا) مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد، ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه. ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في النون (أنذرهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر).[12]

وقد يرد في القرآن ألفظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع، ولكنها خفيفة في النطق، كقوله تعالى:)لسيستخلفنهم في الأرض(، فهي كلمة مركبة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها، فغنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات إذ تنطق على أربعة مقاطع. وقوله تعالى: (فسيكفيكهم الله)، فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع، وقد تكر رت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها.

وفي القرآن لفظة غريبة، مثل كلمة: "ضيزى" في قوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى)، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، جاءت تلك الكلمة فاصلة من الفواصل ثم

[12] المصدر السابق: – 22

هي في معرض الإنكار على الع رب، إذ تل الآية وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والملائكة بنات الله، فقال تعالى: (ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذن قسمة ضيزى). فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة.[13] وكذلك الكلمات الزائدة في القرآن كما يقول النحاة، كقوله تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم)، وقوله تعالى: (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بص يرا)، فإن النحاة يقولون إن:"ما" في الآية الأولى، و"أن" في الآية الثانية زائدتان، أي في الإعراب، ولكن من ناحية المعنى البلاغية هناك لونا آخر للتصوير، لوحذف (ما) و (أن) من الكلام لذهب حسنه وروعته، فإن المراد بالآية الأولى: تصوير النبي صلى الله عليه وسلم لقومه وإن ذلك رحمة من الله فجاء هذا المد في "ما" وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخّمه.

الخلاصة

القرآن هو كلام الله المعجز للخلق فى أسلوبه ونظمه وعلومه وأحكامه وفي تأثير هدايته وفي كشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة. فالقرآن نفسه كان حجة بلاغية، وقد أثر نفوس العرب سمو بيانه، حتى إن كثيرا منهم لم يؤمن إلا بتأثير خصائصه الأسلوبية إذرآها فوق طاقته البيانية.

[13] مصطفى صادق الرافعي: المصدر السابق: – 23

الإعجاز اللغ وي يتعلق بالحروف وأصواتها والكلمات وحروفها. وهذا الصوت لا يكون إلا من ترتيب الصوت الذي يثير ويترسل بعضه بعضا. وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت من الحر وف بأنواع أصواتها ومخارجها.

المراجع

القرآن الكريم

الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار الفكر، 1989

أحمد الهاشيمي، جواهر البلاغة، مكتبة دار الإحياء الكتب العربية، إندونيسيا، 1960

مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، منشورات في العصر الحديث، 1990

الباقلاني، القاضي أبي بكر محمد بن الخطيب: إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية: بيروت، 1995

مصطفى صادق الرفعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 2001